المهدي والمهدويّة
الأُطروحةُ أصلُها وتطوّرُها في النُّصوص

الشيخ د. جعفر المهاجر

نرمي في هذا البحث إلى قراءة النصوص ذات العلاقة بالإمام المهدي عجّل اللهُ فرَجَه قراءةً شاملةً ، ابتغاءَ اكتشافِ الخفيّ من مغزاها أو بالأحرى مغازيها . اعتقاداً منّا أنّ هذه المغازي لا تُفصحُ عن مكنونِها في نصٍّ بعينه . وأنّها ، ككلّ حقيقةٍ إحصائيّةٍ ، لاتنطقُ إلا من خلال منظورٍ كلّيّ .

بالنسبة للعارفين ، فإنّ من الغنيّ عن البيان أنّنا ، إذ نتحدّثُ عن "قراءةٍ شاملة" للنصوص ذات العلاقة بالموضوع ، نتكلّم على مئات كثيرةٍ من الأحاديث ، التي رُويت بمختلَف الطُّرُق العابرة للمذاهب . صدرتْ عن النبي صلوات الله عليه وآله ورواها عنه الأصحاب . وتتابعت صُدوراً عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام حتى الإمام الحادي عشر عليه السلام . أي أنّها ظلّتْ تصدرُ بمختلف الصياغات والألسنة زهاء المائتين وخمسين سنة . وكلُّ ذلك محفوظٌ في المجاميع الحديثيّة كبيرةً وصغيرة ، ممّا يُوصَف بالصحيح وغيرها .

المغزى الأوّلُ لهذا البيان ، أنّ أُطروحة المهدي ، بمعنى أنّه سيخرجُ في آخِرِالزمان رجلٌ من وُلْد فاطمة عليها السلام فيملؤها قسطاً وعدلاً كما مُلئتْ ظُلماً وجورا، هي بهذا التّحديد مُتواترةٌ بالمعنى . بل هي في أعلى درجات التّواتُر لدى كافّة المسلمين[1] . الأمرُ الذي يمنحُها صفةَ الأصل المُتّفق عليه بينهم ، بل ويضعُها مبدئيّاً خارجَ الصِّفة المذهبيّة وبمنأى عن كلِّ نزاع مذهبي .

---

[1]. صرّح بالتواتُر جمعٌ كبيرٌ من الأعلام من غير الشيعة . نذكر منهم القاضي الشوكاني في كتابه (التوضيح في تواتر ما جاء في المهديّ المُنتظر والدجّال والمسيح) قال : " والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوفُ عليها خمسون حديثاً ..... وهي متواترة دون شكٍ ولا شُبهة . بل يصدقُ وصف المتواتر على ما دونها في جميع الاصطلاحات المُحرّرة في الأُصول . وأمّا الآثار عن الصحابة المُصرّحة بالمهدي فهي كثيرة جدّاً " . والشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الوهّابي . قال في تعقيبه على كتاب (عقيدة أهل الأثر في المهدي المُنتظر) "..... فأمرُ المهدي أمرٌ معلوم . والأحاديث فيه مُستفيضةٌ مُتواترة" . وغير ذلك كثير لا ينحصر .

المغزى الثاني أنّ مَسَارَ هذه الأُطروحة في الزمان الطويل ، على النحو الذي قُلناه ، ليس بالأمر الغريب ولا البِدْع . بل يندرجُ في سياق نهجٍ إعداديٍّ فكريٍّ درجَ عليه الأنبياءُ من قبل . بحيث أنّهم وهو يعملون على تبليغ رسالتهم الآنيّة ، كانوا يعملون أيضاً على تهيئةِ الناس للخطوة التالية القادمة قبل حصولها بزمنٍ طويل . ومن ذلك مثلاً أنّ إبراهيمَ وولدَه إسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان قواعدَ أوّلَ بيتٍ وُضع للناس ، داعين المولى سبحانه بأن يجعلهم مُسلمين له ، رميا إلى المستقبل غير القريب ، فتابعا دعاءَهما بأن يجعلَ من ذُرّيّتهما أُمّةً مُسلمةً له ، وهذا يعني الرسالة المُحمدّيّة ولا ريب . وأنّ السيّد المسيح عليه السلام بشّرَ برسولٍ يأتي من بعده اسمُهُ أحمد .

فإذا نحن تابعنا التأمُّل بناءً على هذا المغزى ، فإنّهُ سيقودُنا إلى فكرةٍ أُخرى في الغاية من الأهميّة . هي أنّ الأُطروحةَ المهدويّة جزءٌ لا يتجزّأ من المنظومة الفكريّة الإسلاميّة المحمدية ومرماها البعيد . بحيث أنّنا من غير الممكن أن نتصوّرَ المشروعَ الإسلامي المُحمديّ بوصفه خاتمةً للرسالات ، وبوصف أنّ الغرض النهائي من بعث الرُسُل وإنزال الكُتُب والشرائع إنّما هو أن يقومَ الناسُ بالقسط . وإلاّ فسيكون علينا أن نقبلَ أنّ المشروعَ الإلهي في مساره الطويل قد فشل فشلاً ذريعاً ونهائيّاً ، وأن كلَّ رسالات الأنبياء لم تصِل إلى غايتِها .

من الواضح لقارئٍ حصيفٍ يُحسنُ نظمَ الأفكار إلى بعضِها فكرةً فكرةً ، بحيث تتكامل وتبنى بمجموعها فكرةً كُلّيّةً ، أن ينتهي إلى منظومةٍ تقول إن أصالة المهدوّيّة في الإسلام ، هي تعبيرٌ آخر عن تواتر الأُطروحة في النصوص . وإلا فلماذا جرى التأكيد عليها بهذا الدّأب جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن . إذن فالأصالةُ عملانيّاً هي ثمرة التواتر ، والتواتر ثمرة التأكيد على هذا النحو .

ممّا يتصلُ بهذه الحقيقة الكُلّيّة ، أنه على الرغم من أنّ المهدويّة هي في الأساس أُطروحةٌ تغييريّة ، أي أنّها تعمل على تغيير الوضع السياسي على الأقل الذي تظهر فيه تغييراً جذريّاً . ومع ذلك فإننّا رأينا محاولاتٍ جَمّةً من قِبَل أرباب السُلطة لتوظيف تعلّق آمال الناس بها فيما يعودُ عليهم بالنفع . وذلك بالزّعم أنّه هو

المهدي الموعود ، الذي يملؤها قسطاً وعدلا . وفي هذا دليلٌ لا يُدحَضُ على أنّ الاعتقاد بالمهدي وخروجِه كان من الاعتقادات الشعبيّة المُنتشرة على نطاقٍ واسع .

من أولئك :

. الوليد بن يزيد بن عبد الملك[٢] ، الحادي عشر من (الخلفاء) الأُمويين . منح نفسه لقب (المهدي) ، وبنى على ذلك زعمَه أنّه هو الموعود المُنتظَر.

. محمد بن المنصور العباسي ، ثالثُ (الخلفاء) العباسيين تلقّب أيضاً بـ المهدي للغرض نفسه .

. الأدارسة حينما أسّسوا مدينةً جديدة في المغرب لتكون عاصمةً لهم سمّوها بـ المَهديّة .

. وآخر ما نعرفه في هذا السّياق الحركة المَهديّة في السودان .

ولكلٍّ من هؤلاء حكايته الخاصّة مع المهدويّة . ولكنهم إجمالاً عملوا على مُخادعة الناس باستغلال العقيدة الشعبيّة القويّة فيما يعودُ على سُلطانهم بالنفع .

من هنا نقول أنه أثناءَ أربعة عشر قرناً من الزمان تقريباً كان للعقيدة المهدويّة سلطانَها الشعبيّ القويّ خارجَ البيئة الفكريّة الشيعيّة . ونُضيف أنّها لم تنزل عن مكانتها هذه إلا قبل ثمانين سنة تقريباً . وذلك بسبب حملة التشنيع الهائلة التي نظّمتها القوى الصهيونيّة الخفيّة ضدّ الشيعة والتشيّع بأقلامٍ محلّيّةٍ مأجورة . قصدَ إشعال فتنةٍ شيعيّة . سُنّيّة تُخلخلُ أركانَ العالَم الإسلامي وتُمهّدُ لإعلان دولة إسرائيل . وكان من أهمّ عناصر تلك الحملة التشنيع على أُطروحة المهدي ، بوصفها عقيدةً خاصةً بالشيعة . وكان من التأثيرات الباقية لتلك الحملة أن أدخلت في وهم غير الشيعة أنّها عقيدةٌ شيعيّةٌ حصراً . وخسرت المهدويّة حضورَها الشعبي لدى غير الشيعة . وغدتْ نِسياً منسيّا ، لا تُذكر، إن ذُكرتْ إلا

---

٢ . من المعروف عن هذا (الخليفة) تجاهره بصنوف الفسوق ، بل وصل به الأمر إلى حدّ التجاهُر بإنكار التنزيل والوحي . وهو القائل : لعبت هاشم بالمُلك فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزَل .

على ألسنة بعض الخواصّ في مناسباتٍ تقتضيها [٣] .

ممّا يتصلُ بهذه الحقيقة أنّه أثناءَ القرنين ونصف القرن الإسلاميين الأوّليَن لم تكُن مَقولة (المهدي) من كلمات القاموس العقيدي عندنا . بل كان الطرحُ المُستقبلي هو (القائم) ، (قائمُنا) ، (قائم آل محمد) . وهو طرحٌ يبدو أنّه يرمي إلى تغذية واستبقاء الروح الشيعيّة مُتحفّزة للحظة النهوض السياسي . إذن فهو ذو مضمونٍ نهضويّ ينظرُ إلى لحظة العمل السياسيّ المُباشِر . في أثر فترةٍ طويلةٍ من العمل الرّامي إلى الإعداد والتحضير التنظيمي والتعليمي وما يتصل بهما . ذلك العمل الذي تولاّه في تحوّلاته الأئمّةُ المُتوالون منذ الإمامَين الباقر والصادق عليهما السلام . اللذين نضجت على يديهما النظريّة . ثم تولّى الأئمة التالون منذ الإمام الكاظم عليه السلام الجانب التنظيمي المبني على النظريّة . ولم تلتقِ المقولتان : القائم والمهدي إلا بشخص الإمام الثاني عشر عجّل الله فرجه . إذ ذاك عرف الناسُ أن (القائم) هو نفسه هذا (المهدي) . وشيئاً فشيئاً أخذت مقولةُ (القائم) تغيبُ عن اللغة السّائدة عندنا . لتحلّ محلّها مقولة (المهدي) . وهذا من أقوى الأدلّة على أصالة المبدأ الجامع بين المقولتيَن .

---

٣. من ذلك أنّه على أثر ثورة العُتيبي في مكة خرجت ألسنة السلطة بخطابٍ تحريضي يقول ، هذا الرجل شيعي بدليل أنه يستعمل في خطابه السياسي كلمة (المهدي) . فصنّف أحدُ علماء الأزهر كتاباً يُجهّل أصحابَ هذه المَقولة ، وأنّ المهدويّة هي عقيدة أهل السنة والجماعة قبل أن تكون للشيعة .